Al-Turath Al-Adabi

ISSN (P): 3005-7426, ISSN (E): 3005-7434

Vol: 03, Issue: 01 (Jan-June 2025)

https://alturath.numl.edu.pk/index.php/alturath

DOI: https://doi.org/10.52015/al-turathal-adabi.v3i1.39

Received: May 05, 2025 | Accepted: June 20, 2025 | Available Online: June 30, 2025

السيرة الذاتية في مرآة الأدبين العربي والغربي: قراءة مقارنة في النصوص والأنواع

Autobiographical Writing in Arabic and Western Literature: A Comparative Study of Forms and Narratives

الدكتور محمد فيصل

الأستاذ المساعد، قسم اللغويات (العربية)

جامعة هري فور، خيبر بختونخواه، باكستان

الدكتور محمد أسلم

الأستاذ المساعد، كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

Dr. Muhammad Faisal

Assistant Professor, Department of Linguistics (Arabic)

The University of Haripur, KP, Pakistan

Dr. Muhammad Aslam

Assistant Professor, Faculty of Arabic, IIUI

Abstract:

This research paper encompasses autobiographical writing in Arabic and Western Literature. This study offers a comparative analysis of the autobiographical genre in Arabic and Western literary traditions, examining its origins, forms, and cultural functions to address a gap in modern comparative literature regarding underrepresented self-narratives. This research employs a

Al-Turath Al-Adabi, Department of Arabic, NUML, Islamabad, **This work is** licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License (CC BY-NC 4.0).

comparative and interdisciplinary methodology, integrating historical and analytical approaches. It investigates the development of autobiographical writing in both traditions, tracing its roots in classical Arabic *siyar*, philosophical reflections, and mystical writings, and comparing these with Western models. The analysis encompasses various forms, including memoirs, self-translations, and personal testimonies. The study finds that Arabic literature possesses a deep and established tradition of self-reflection that predates and parallels Western autobiographical models. It reveals that autobiography functions as a dynamic space where personal narrative, literary artistry, and cultural memory converge. The comparison highlights both unique and shared thematic concerns, such as the negotiation of individuality against societal norms, showcasing the genre's evolution into modern expressions of personal consciousness. The research underscores the need to broaden the canon of comparative autobiography to include diverse Arabic forms. It suggests that future studies should further explore specific sub-genres like mystical autobiographies or modern digital self-narratives to deepen the understanding of cross-cultural self-representation.

Keywords: Autobiography, Comparative Literature, Arabic Literature, Western Literature, Self-Narrative, Literary Criticism, Cultural Memory.

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسةً مقارنة لفن السيرة الذاتية بين الأدب العربي والأدب الغربي الحديث، مسلطًا الضوء على تطور هذا الفن عبر العصور ومظاهره المتعددة في كلا السياقين. وقد بين البحث أن السيرة الذاتية شكلٌ أدبيٌّ يجمع بين التوثيق الذاتي والتعبير الأدبي، ويمتد ليشمل أنواعًا فرعية كـ الاعترافات، واليوميات، والروايات السيرية، والمذكرات، والرحلات. أظهرت الدراسة أن العرب عرفوا هذا الفن قديمًا من خلال كتب الطبقات والتراجم، وسير الصحابة والعلماء، ثم تطور لاحقًا بتأثير الثقافة الغربية، لا سيما بعد الحملة الفرنسية. كما ناقش البحث نماذج عربية وغربية بارزة، مثل الأيام لطه حسين واعترافات

جان جاك روسو. ويخلص البحث إلى أن السيرة الذاتية أداة فعالة لحفظ الذاكرة الفردية والتاريخ الثقافي، وأنها تشكل جسرًا بين الذات والمجتمع، وبين الواقع والخيال الأدبي.

الكلمات المفتاحية: السيرة الذاتية، الأدب المقارن، التراجم، الاعترافات، اليوميات، الرواية السيرية، الأدب العربي، الأدب الغربي، التوثيق الذاتي.

مفهوم السيرة

إن دراسة السيرة الذاتية في تاريخ الأدب عبارة عن الطريقة والسنة أو الهيئة.[١] وفي العُرف: "تعبير عن ترجمة الحياة لشخص ما" أو "تأريخ مدوّن لحياة شخص"[٢]. وقد عرّفها بعض الأدباء بأنها: بحث يتناول حياة الكاتب أو حياة شخصية مشهورة، ويظهر فيه الإنجازات التي تحققت خلال حياته أو حياة الشخص المعني.[٣] ففن السيرة هو شكل من أشكال الأدب يتضمن دراسة تاريخية، ويهدف إلى توضيح حياة شخص ما ورسم صورة دقيقة لشخصيته، حيث يُسجل فيه التاريخ الأكاديمي والمهني للفرد .ونقصد بالسيرة الذاتية: الحياة الشخصية هنا، مثل الطفولة والأسرة والتعليم والنوع الوظائفي الذي شغله والعلاقات الاجتماعية التي عاشها، لكنها تستعمل غالبًا في الأدب، لأنها تستعرض جميع الأحداث المتعلقة بالشخص المعني، وغالباً ما يكون كاتبًا أو مؤلفًا، بالإضافة إلى الإنجازات التي حققها بالترتيب الزمني المعروف، أي بدءاً من مرحلة الطفولة مروراً بالشباب ووصولاً إلى المراحل المتقدمة من عمره، فهي متعددة الأنواع في كل من الآداب العربية والغربية؛ ولذا أصبحت فرعاً مثيراً للاهتمام بشكل متزايد من الأدب المقارن الحديث والنقد الأدبي؛ ولهذا السبب فإن كلا المستويين الأدبيين: الدراسة المقارنة للسيرة الذاتية والتحليل النقدي للسيرة الذاتية دقيقان في مجال تطور الكتابة للسيرة الشخصية.

كان فن كتابة السيرة الذاتية نوعاً قديماً من الأدب العربي، وهو نوع مشهور من الأدب العربي في العصور القديمة والحديثة .لقد شهدت تغيرات متنوعة وتطورات مختلفة عبر العصور مع مرور الزمن. وهذا يدل على أن هذا الفن ليس جديداً بالنسبة للعرب، فقد كانوا على دراية به منذ العصر الجاهلي. فهو لا يقتصر على تأليف تراجم الكتاب والمؤرخين فحسب، بل تميز أيضًا في فنون أدبية متنوعة مثل التاريخ، واليوميات، والمذكرات، والاعترافات،

والقصص، والرواية. ومسيرة المشاهير والرموز تمتاز أيضاً بخصائص شخصية ونفسية .سوف نتعرف على تاريخ تطور هذا الفن وأنواعه في الصفحات التالية بإذن الله.

يهدف هذا البحث إلى التعرف على الخلفية التاريخية وملامح فن كتابة السيرة الذاتية في الأدب المقارن. كما يتناول البحث فن كتابة السيرة الذاتية في الآداب والتاريخ ويعود أصوله إلى العادات والتقاليد العربية القديمة. هناك عدة أمثلة للسير الذاتية في الأدب العربي الكلاسيكي تلقي الضوء على فن كتابة السيرة الذاتية في الأدب العربي والغربي في ضوء المنهج المقارن كما يركز على التطورات التاريخية لكتابة السيرة الذاتية في الأدب القديم والحديث في ضوء كتب السير وتراجم الرجال والطبقات وغيرها. من الواضح أن لكتب السير والتَّراجم قيمة كبيرة في استخلاص المادة التاريخية، لا تخفى أهميتها في إعطاء صورة صادقة عن عنصر في مستوياته الاجتماعية والثقافية والدينية، وفي بعض الأحيان تمدنا بمعلومات فريدة عن النواحي السياسية والحضارية، وهذه القيمة التاريخية الكبيرة لكتب التَّراجم، لم تغرب عن بال الباحثتين والدارسين.

فموضوع السيرة والتَّراجم علم من العلوم الانسانية والاجتماعية التي خلدت حقائق تاريخية من خلال سير الأحداث، فأصحاب السير والتَّراجم هم صانعو التاريخ إنهم أبطال الرحلة، هم من خُزّنت بسيرهم الاخبار، وانعكست في أذهان الناس عنهم الإنجازات والتأثيرات، بحيث ان نشأة هذا العلم فهو منذ القدم، فإن الأمم منذ القدم تهتم بتخليد ذكر كبائرنا وأعيانها، وقد عرفت هذه الكتب أنواع كثيرة وهي أنوع تصنف منها إلى الخاصة والعامة، منها ما ترجم لعَلم من الأعلام، ومنها ما كان مختص لأهل التخصص أو طبقة أو بلد، ويرجع كتب السير والمراجع إلى مصادر تأخذ منها المعارف والمعلومات فقد تستمد عن طريق السمع، أو تبني على الاتصال الشخصي بالمتَّرجم له.

فمن هنا تظهر أهمية كتب التَّراجم في استخلاص المادة التاريخية، فهي تعطي صورة واضحة عن الحياة السياسية والحضارية وكذا تساعد بتأسيس العقيدة في النفوس من خلال

الوقوف على قصص وأخبار بعض الأمم السالفة المذكورة في أم الكتاب، ومن أبرزها توضيح أهمية ذكر سير السابقين وأخبارهم، وأن ذلك يعد دعامة قوية تعتمد عليها الدعوة إلى الدين الحق، كما أن من مؤشرات أهمية فن السير والتراجم اهتمام علماء الأمة بهذا الفن بصورة خاصة، وبكتب التاريخ بشكل عام، إن ما أنجزه علماء الأمة من مؤلفات متعددة في هذا المجال؛ هو برهان واضح على ضرورته وأهميته في حياتنا.

فوائد السيرة:

فن السيرة له مكانته وقيمته، ويحمل العديد من الثمار والفوائد، وقد نعرض لبعض من ثماره وفوائده، إذ إن فوائدها لا تعد ولا تحصى؛ كما ذكر الإمام ابن الأثير ﷺ في بداية كتابه: "الكامل في التاريخ"، حيث تحدث عن فوائد كتابة السير والتاريخ. فقال: إن فوائدها عديدة وعظيمة في الحياة الدنيا والآخرة، ونستعرض هنا بعض ما ظهر لنا فيها، وندع للمتأمل فرصة اكتشاف ما تبقى. فن السيرة والتراجم ذو فوائد غزيرة وعوائد كبيرة، ولن نستعرض كل ما يحتمل من منافع، بل نسعى لجمع ما يثري الذهن ويحفز الفكر، وما يرد ذكره في المصادر والمراجع ومنها:(٤)

الأولى: معرفة وقراءة بعض الروايات المتعلقة بالنبي ﷺ، أو بغيره، التي توجد في سير الصحابة وغيرهم من الرواة.(٥)

الثانية: الإلمام بحالة الرواة من حيث القوة والضعف، والاستقامة والبعد، والديانة والخبث، والقبول والرد، وما يستتبع ذلك من فهم الأدلة النبوية ومراتبها من ناحية القبول والرفض(٦) .

الثالثة: من مزايا هذا العلم معرفة تأثيرات بعض الأئمة وآثارهم، من خلال تحليل مؤلفاتهم وأقوالهم، ومدى تأثيرهم بمعلميهم وتأثيرهم على طلابهم(٧) .

الرابعة: ومن ذلك أهمية الحكايات وأخبار الأمم السابقة في تثبيت العقيدة في القلوب، حيث إن الله تعالى كلم نبيه ﷺ في القرآن الكريم، وما نزله منه في مكة –شرفها الله – خصوصاً، بالعديد من الحكايات وأخبار الشعوب القديمة.(٨)

الخامسة: ومن الفوائد، ما ينجم عن استحضار الشخصيات المثالية، وفهم سيرهم وآخر أخبارهم وأعمالهم، وتأثيرهم في صيانة دين الأمة والمقام الذي نالوه في هذه الحياة، نتيجة لإخلاصهم في طاعة الله تعالى، وحينها تنطق الألسن بالدعاء لهم، وتقدير جهودهم، وفاءً لهم، واعترافاً بجميلهم .(٩)

السادسة: ومن جوانب ذلك تحليل حياتهم ووقائع سيرهم، ومواقفهم في نصرة الدين، وصون حوزة الإسلام والمسلمين .يتذكر المتأمل في هذا السياق عظمة المسؤولية الملقاة على عاتق الأمة في تحمل الإرث الذي خلفه الأسلاف، وفي ملء الفجوة التي فقدت، وفي فهم الأسلوب الذي اتبعوه، ليحذوا حذوهم في تأدية هذه المسؤولية وتولي هذه المهام الجليلة.(١٠)

السابعة: ومن الجوانب الهامة تحليل المواقف التعليمية في حياتهم، بهدف تزكية النفس وتهذيب القلب وزيادة المعرفة وتوجيه الناس، لذلك يولي المربون والأدباء والكتّاب والمصنفون اهتمامًا لعرض المواقف التعليمية من تجاربهم، وتركز الجهود على تسليط الضوء على الدروس المستفادة من دراسة أخبارهم، وتوجيه ذلك للشباب بأسلوب سهل ومفهوم، ليحقق تأثيراً أكبر في التوجيه ويكون أكثر بلاغة في النصح والتربية.(١١)

الثامنة: ومن ذلك تذكّر سنن الله في هذا العالم، وأن ما عاشوه سيعاني منه من يأتي بعدهم، والحكيم هو من يتعظ بتجارب الآخرين. بالطبع، إنها سنة الوفاة والانتقال من هذه الدنيا، فهذه هي السنة الحتمية؛ فكل كائن يسير نحو الموت، وكل من على وجه الأرض من المخلوقات مودع وبائد، مهما طالت أعمارهم، أو نالوا من خيرات الدنيا وثرواتها ومنازلها وأموالها ما نالوا، فإن الموت حتمي، والحكيم من يعتبر بتجارب الآخرين، وليس من كان عبرة لغيره، وعظة لمن يليهم، فكل هؤلاء القادة عاشوا في هذه الأرض، ومهما كانت أوضاعهم ومكانتهم، وحكامهم وقوتهم؛ فإنهم جميعًا إلى الموت سائرون، وينتظرون موقف الحساب والجزاء في الدار الآخرة.(١٢)

التاسعة: ومن المنافع أن تحليل هذه السير والتراجم والتفكير في فصول التاريخ يذكرنا بوجود أجيال من الأمم العظيمة، التي اندثرت أخبارها، وذُهِبت آثارها، واندثرت أسماؤها، ولم يتبق سوى ما تركوه ومن الذكر الذي أبقوه، لذا اهتم هذا العلم بتسليط الضوء على هؤلاء الأعلام، الذين وثقوا لأنفسهم مكاناً في سجلات التاريخ.(١٣)

العاشرة: ومن أبرز الفوائد أيضاً التسلية، وذلك عبر سرد بعض القصص والطرف والعجائب والنوادر، حيث كانت الأخبار والسير تمثل جزءاً من متع مجالس الأمراء والسلاطين والكبراء، وكانت سمرهم وبهجتهم. كما أنها ترفع معنويات المغمومين وتخفف من هموم المهمومين، إذ من يتعرف على مواقف الحياة وتقلبات الأيام، ومن يسترجع أخبار من رحلوا وتركوا آثاراً، فذلك يُشعره بالتسلية ويزيل عنه الحزن والاكتئاب، ويعطيه قوة الصبر ومتانة التحمل، ويشجعه على الاعتبار بالأحداث الماضية. (١٤)

الحادية عشرة: وتشمل دراسة أثر الجوانب السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية على شخصيات كل حقبة، ومدى تأثيرهم فيها وتأثرهم بها.(١٥)

الثانية عشرة: ومن ذلك فهم أن المعرفة بهذا الدين، والوعي في شريعة الله تعالى، واستخراج الأحكام من المصدرين، كل هذا ممكن في كل الأوقات، وأن الإدراك لذلك متوافر لدى السابقين واللاحقين. وأن السابقين تركوا للاحقين الكثير.(١٦)

استنادًا إلى ما تم ذكره في النقاط السابقة، نجد أن كتب السير والتراجم بشكل عام وكتب السيرة الذاتية بشكل خاص تنتشر عالميًا وتحظى بأكبر قدر من اهتمام القراء والمهتمين، حيث تظهر الإحصائيات أن كتب السيرة الذاتية للمشاهير هي الأكثر رواجًا في الولايات المتحدة، كندا، وأوروبا، خصوصًا أوروبا الغربية. يستعين القراء بالسير الذاتية لعدة أسباب، أهمها اكتشاف الحقائق التي ظلت غامضة حول حياة شخصيات السير لفترة طويلة، المليئة بالتشويق والإثارة للقارئ، خاصة مع إدراكه أن الأحداث حقيقية وليست من خيال الكاتب كما في الروايات .

أقسام السيرة: وهي تنقسم إلى ذاتية وغيرية.(١٧)

القسم الأول: السيرة الذاتية: تعتبر السيرة الذاتية من أساليب الكتابة الأدبية، وتشير إلى فن تقديم الفرد لتجربته الشخصية أو جزء منها، ومن الصعب تقديم تعريف دقيق لهذا النوع الأدبي، لأنه يتميز بمرونة أكبر مقارنةً بالأنواع الأخرى وأقل تحديداً، فقد تشمل قصصاً عن أحداث معينة من حياة الفرد، أو تفصيلات عن يومياته، أو اعترافات ذاتية، مثل أن يعبر الكاتب عن الأخطاء التي وقع فيها في فترة من حياته، فهي سرد شخص لوقائع حياته. فكثير من الباحثين لا يعلمون بأن هناك عدة أنواع من السيَر الذاتية ومن هذه السيَر السيرة الذاتية المفصلة (CV)، والسيرة الذاتية المختصرة (Resume)، والسيرة الذاتية الشخصية (Bio) ولكن نوع من هذه الأنواع خصائص وعناصر تميزها عن غيرها، وهذا ما سنتناوله بشيء من التفصيل من خلال أنواع السيرة الذاتية، فمنها:

أولاً: السيرة الذاتية المفصلة:(CV) السيرة الذاتية المفصّلة تعتبر المنصة التي تتيح لك عرض إنجازاتك الكثيرة بشكل مُفصل، مثل نوع المشاريع التي قمت بإدارتها في مجال الهندسة، أو مهاراتك في تعليم البرمجة، أو خبراتك في الأبحاث التي قضيت فيها فترات طويلة من الزمن، أو الشهادات التي حصلت عليها نتيجة حضور تدريبات متنوعة، كل ذلك يترك انطباعاً جيداً لدى جهات ومنظمات التوظيف حول مدى صلاحيتك للوظيفة المتاحة لديهم.

ثانياً: السيرة الذاتية المختصرة:(Resume) هذا النوع من السير الذاتية يُعرف بالسيرة الذاتية القصيرة، لكنها تتضمن تفاصيل أكثر، حيث يمكنك اتباع نفس الخطوات المستخدمة في إعداد السيرة الذاتية المختصرة لإنشاء سيرة ذاتية طويلة تضم الاسم، ومعلومات الاتصال، والخبرات، وغيرها. الاختلاف هنا هو أن السيرة الذاتية المختصرة قد تكون صفحة أو صفحتين، بينما يمكن أن تتجاوز السيرة الطويلة ذلك العدد بناءً على المقتضيات. يمكن أن تبرز مهاراتك ومؤهلاتك الوظيفية من خلال كتابة سيرة ذاتية جيدة، وهذه المهارة ستجعلك تتميز عن المنافسين الذين تقدموا لهذه الوظيفة.

ثالثاً: السيرة الذاتية الشخصية:(Biography) السيرة الذاتية هي ببساطة توضيح شامل عن حياة فرد معين، ونعني بالحياة الشخصية هنا نشأته والأسرة والدراسة وأنواع الوظائف التي شغلها والعلاقات الاجتماعية التي خاضها في حياته، لكنها تُستخدم غالباً في الأدب، حيث تتناول جميع الأحداث التي مر بها الشخص المعني، والذي يكون غالباً كاتباً أو مؤلفاً، بالإضافة إلى الإنجازات التي حققها بالتسلسل الزمني المعروف، أي منذ مرحلة الطفولة مروراً بالشباب ووصولاً إلى المراحل المتقدمة من حياته. يمكن إضافة سيرة ذاتية مع المستندات المطلوبة للتقديم على وظيفة معينة، إذا كانت تلخص تاريخك المهني بطريقة سهلة القراءة، مع التركيز بعيداً عن التفاصيل الشخصية، مما يسمح لأرباب العمل بالوصول بسرعة إلى إنجازاتك ومهاراتك المناسبة للوظيفة المتاحة.

الفرق بين السيرة الذاتية والسيرة الشخصية: يكمن الاختلاف الجوهري بين السيرة الذاتية القصيرة أو الطويلة وبين السيرة الشخصية في أن الأولى تستخدم عادة من قبل المتقدمين للوظائف وتوجه نحو فئة معينة من أصحاب العمل وشركات التوظيف، بينما السيرة الشخصية تستهدف جمهوراً أوسع.

القسم الثاني: السيرة الغيرية: يستهدف هذا النوع الأدبي الذي يكتب عنه بعض الأفراد سيرة أشخاص آخرين، سواء كانوا من الشخصيات المعروفة في الماضي أو في الحاضر. قام عبد اللطيف الحديدي بتناول هذا الموضوع في مؤلفه "فن السيرة"، يعرض الكاتب حياة شخصية معروفة، ويستعرض في الصفحات تفاصيل حياة صاحب السيرة أو الترجمة، ويبين الإنجازات التي حققها والتي ساهمت في توسيع شهرته، وجعلته موضعًا للبحث والدراسة . السيرة الغيرية جاءت قبل السيرة الذاتية، حيث نشأت مع التاريخ والأدب.[١٨] منذ عصر المدنيات، كان الرجال يؤلفون في هذا المجال ممن كانوا يكسبون رزقهم في بلاط الحكام والسلاطين، فكتبوا عن الأحداث التي كانت تدور في عصرهم من تطور ونشوء، موجهين كتاباتهم للملوك والسلاطين، وللحروب والمحاربين، والعلماء ورجال الدين والفنانين وغيرهم

من الشخصيات البارزة. إذ إن غالبية هذه الأعمال تندرج تحت مفهوم سيرة الغير في التراث العربي والغربي.

مظاهر السيرة في التراث العربي القديم

لا شك بأنّ فن السيرة والترجمة ليس بِدعا من بدع العصور الحديثة، بل هو قديم قِدم الإنسان لقد نشأ هذا الفن لدى العرب قبل فترة الجاهلية في زمن السومريين ثم البابليين والمصريين .لقد أولوا أهمية للحديث عن ذواتهم في إطار التاريخ حيث يقول شوقي وماهر حسن فهمي: "تاريخ السيرة الذاتية يعكس بشكل كبير العقلية البشرية في سعيها للبحث عن الحقيقة، ولهذا فقد تمتد جذوره الأولى في الحضارات القديمة، مثل المصرية والبابلية والهيلينية وغيرها"(١٩). وفي العصر الجاهلي تطورت كتابة السير والتراجم عند الشعراء. إذ كان الشاعر العربي في الجاهلية يلتزم قرارات قبيلته مهما كانت الظروف فقد كان يمدح شخصيته وقبيلته على كل حال، فلم يقتصر الشاعر على ترجمته الذاتية والخصائص النفسية، بل تعرَّض أحيانا لسير الملوك والأمراء. ومن هنا تبلورت أنواع متعددة من الفن السيرة الذاتي، كان من أبرزها السيرة الذاتية التي يكتب فيها المؤلف عن تجربته الشخصية، والسيرة الغيرية التي يتناول فيها حياة شخصية أخرى من وجهة نظره. وبذلك لم تعد المعلقات وحدها تمثل التراث الشعري لأصحابها، بل ظهرت أشكال أخرى من الكتابة الذاتية تعكس ملامح الوعي الفردي والتجربة الإنسانية، وتوثّق سِيَر أصحابها نثرًا وشعرًا، في تعبير متنامٍ عن الذات وتفاعلها مع المجتمع والتاريخ. حيث ضمّنوها ذكرياتهم ومشاهد حياتهم. بل كان لهم الكثير الكاثر غيرها، كما كان لغيرهم من شعراء العصر الجاهليّ. وفي عصور الإسلام مع الأُمويّين والعبّاسيّين والفاطميّين والأيّوبيّين وسِّواهم، فكان الشّعر بمثابة المذكّرات والذّكريات والتّأريخ. كان الموسوعةَ التي تنتظم سِيَر الخلفاء والشُّعراء وعامة النّاس، حتَّى سُمّيَ بأنّه "دِّيوانُ العربِّ".(٢٠)

من أوائل الاهتمامات التاريخية لدى المسلمين في هذا المجال هو توثيق سيرة الرسولﷺ ومغازيه وكل الجوانب المتعلقة بحياته، لأن السيرة النبوية العطرة تحمل نكهة خاصة وطعماً مميزاً

لدى المهتمين بالعلوم الشرعية والإنسانية بشكل عام. كانت السيرة النبوية في البداية جزءًا من علم التاريخ العام، لكنها أصبحت تخصصًا منفصلًا، له موضوعاته ومميزاته ومؤلفاته، حتى أصبحت علمًا مستقلاً يهتم بتفصيل حياة النبي ﷺ ونسبه، وشخصيته، وصفاته الخلقية، والخلقية .لقد اهتم العلماء بتوثيق هذه الأحداث المضيئة، بعناية فائقة، ودقة عالية، من خلال البحث والشرح، والتعليق، والتلخيص والتفصيل. عندما توفي النّبيّ ﷺ، ظهرت أهمية توثيق الحديث النّبويّ الشّريف، إذ كان الصحابة لا يتركون أي شيء من أقواله وأفعاله، إلا وأحصوه وتناقلوه، وقد روى الصحابة، ثم تابعهم التَّابعون، ونقلوا ما سمعوه، فانتقل الحديث عبر الأجيال، ثم تشكّل سَنَدُ الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من الرُّوَّاة، وازدادت طرق رواية الحديث واختلف حاملوه، وأصبح يشتمل على متن وسند، يتنوع في الطول والقصر. لقد كان اهتمامهم بالحديث النبوي الشريف عظيماً، حيث أولوا عناية خاصة لرُوَّاته ورجاله، فقاموا بتأليف تراجم وجيزة لهم، وكان الهدف منها توضيح قيمة المحدّث ومكانته في الإسناد. وأدى ذلك إلى تأليف كتب في نقد الرّجال المحدِّثين وتقويمهم بموازين محددة، تجعلهم مؤهلين لحمل أمانة الرواية عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فكتبوا في الجرح والتعديل.

إنّ هذه المؤلّفات الخاصّة برجال الحديث قدّمت خدمة جليلة لفنّ السير والتّراجم، كما نبّهت الأذهان حتّى توضع تراجم أُخر لطبقات من الرّجال، متّفقة في لون واحد من العلم، أو الفنّ أو الصّناعة .فظهرت باكورة المحاولات في فن السيرة فتعددت مظاهره في التراث العربي القديم. فلم يقتصر هذا الفن على السيرة النبوية، بل تجاوز إلى الجوانب الاجتماعية والسياسية والدينية واللغوية والأبية، فألفت كتب الطبقات، والتراجم، والسير للملوك، والأمراء، والصّحابة، والمفسّرين، والمحدّثين، واللغويين، والنحويين، والفقهاء، والفلاسفة، والصوفية، والأطبّاء، والحكماء، والأدباء، والشعراء، والأعلام وغيرها من المصادر والمراجع التي تناولت سيّرهم عبر العصور، وتحقيقها، والعناية بتواريخها ومصادرها، وترتيب أعلامها، وضبطها، وتحقيق أنسابها، وتلخيصها وتذييلها. ومن أبرز النماذج المبكرة للسيرة الذاتية في التراث العربي

ما نُقل عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي (ت: ٣٦هـ / ٦٥٦م)، وقد وردت روايته عن سيرته الذاتية ونسبه في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، منسوبة إلى ابن عباس، وتُعدّ هذه الرواية من أقدم اللبنات التي تشكّل ملامح السيرة الذاتية في القرن الأول الهجري. ويلي ذلك عدد من النماذج التي تتضمن ملامح سيريّة في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، حيث تناول سير عدد من الشخصيات مثل الشاعر الأموي نصيب بن رياح، والموسيقيين إبراهيم الموصلي (ت: ١٧٧هـ) وابنه إسحاق بن إبراهيم الموصلي.

كما نجد مادة غنية للسير الذاتية في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لموفّق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي، المعروف بابن أبي أصبعية (تُوفي نحو ١٢٦٩م)، حيث وثّق سير أعلام كبار من أمثال ابن إسحاق وابن الهيثم، بأسلوب يجمع بين السرد التاريخي والطابع الذاتي. ومن المصادر المهمة أيضًا في هذا السياق معجم الأدباء لياقوت الحموي، الذي قدّم فيه سيرة ذاتية مفصلة لعلي بن زيد البيهقي، بما تحويه من إشارات إلى شخصيته ومساره العلمي.

وعلى الرغم من أن هذه النماذج لا تكتمل فيها كل خصائص السيرة الذاتية الحديثة، فإنها تمثل نواة حيوية لهذا الفن في مراحل تطوره الأولى، إذ تتضمن بعض هذه السير أساليب تعبيرية ذات طابع أدبي نابض بالحياة، تُعبّر عن وعي الذات وحرصها على تدوين مسارها الفكري والوجداني ضمن السياق الثقافي لعصرها.[٢١] .

وتجدر الإشارة إلى وجود عدد من المؤلفات التي احتوت على ملامح سيريّة بارزة، من بينها كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ)، والمنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، إذ يقدّمان فيهما مشاهد ذاتية تتعلق بتجارب روحية وفكرية عميقة، تكشف عن تحوّلات داخلية ووعي تأملي بالذات. ويُعدّ من أحدث ما وصلنا من نماذج السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، سيرة ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) التي أوردها في مقدمة تاريخه، وقدّم فيها عرضًا لتجربته الشخصية والعلمية، مما يجعلها سيرة

ذاتية مكتملة المعالم بالقياس إلى ما قبلها. كما برزت في التراث العربي القديم عدد من الرسائل التي احتوت على عناصر من السيرة الذاتية، وإن لم تكن مكتوبة بصيغة صريحة لهذا الفن، مثل رسالة محمد بن زكريا الرازي (ت: ٣١٣هـ) التي عرض فيها جانبًا من حياته وفلسفته، ورسالة الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي (ت: ٤١٤هـ) التي تضمّنت إشارات ذاتية تعبّر عن معاناته وظروفه الشخصية، فضلًا عن رسالة لفتة الكبد لابن الجوزي التي خاطب فيها ابنه بأسلوب يعكس رؤيته الذاتية وخبرته الحياتية.

وتُظهر هذه المؤلفات، على اختلاف أشكالها ومقاصدها، سمات متكررة تُعدّ بمثابة اللبنات الأولى التي أسّست لفن السيرة الذاتية في التراث العربي. فهي تكشف عن حضور الوعي الذاتي، وتُبرز نزعة التأمل والتوثيق الشخصي، الأمر الذي مهّد الطريق لتطوّر هذا الفن وتألقه لاحقًا ضمن المنجز الأدبي العربي.

مظاهر السيرة في التراث العربي الحديث

لقد لاحظنا تجليات من السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم التي كانت تتحرك ضمن إطار معين لتتخطى رواية الأحداث والوقائع التي عاشها صاحب السيرة، بحيث كان الأمر يقتصر على سرد بعض من أهم هذه الأحداث، بينما السيرة الذاتية بمفهومها المعاصر وملامحها وسماتها وأدواتها الحديثة فقد استلهمناها من الثقافة الغربية . تعتبر من بين تلك الأجناس الأدبية التي برزت في الأدب العربي الحديث كفن أدبي منفصل، حيث يعبر الكاتب عن آرائه الشخصية وما مر به في حياته من تجارب وصعوبات، فيوثق أحداثه وتجربته، ويعرض إنجازاته وآثاره، كما يتحدث عن أيام طفولته وشبابه وشيخوخته، وما حدث له في هذه الفترات من لحظات الفرح والحزن، التي قد تشتد أحياناً وتخف أحياناً أخرى، وهي بالنسبة للبعض: "يمكن أن يُعتبر الحديث عن الذات والمبالغة في تقديرها شركاً، ولكن عندما يكون متوازناً فإنه يعكس بصدق أكثر ما يُكتب عن الشخص وينطبق على واقعه، لأن الأمر هنا ليس مجالاً للتخمين أو

الفرض، بل هو مجال للتحقق والتأكيد"[٢٢] يمكن أن تُدوّن فيها الوقائع والأحداث يوميًا أو بشكل متقطع بعد جمع عناصرها من عدة مصادر، وقد ذُكر في معجم المصطلحات الأدبية أن السيرة الذاتية "هي سرد متواصل يدوّنه شخص ما حول حياته السابقة"[٢٣]. وقد تمثلت مظاهر السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث بمفاهيمها المتعددة، منها:

كتب السيرة الذاتية: تناقش كتب السير الذاتية حياة شخص ما، وغالبًا ما يكون هذا الشخص رجلًا عظيمًا، أحدث تحولًا ملحوظًا في التاريخ، مثل الكتاب والملوك والعلماء وقادة الجيوش وآخرين ممن لديهم إنجازات تستحق أن تُنتقل للأجيال القادمة لأهداف تعليمية على الصعيد التربوي والتعليمي، أو للافتخار بها على صعيد البلدان والأعراق.

من أبرز وأشهر مؤلفات السير الذاتية في الأدب العربي الحديث بمعناه المعاصر كتاب محمد بن عمر التونسي (ت١٨٧٥م) تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان الذي صدر عام 1832م. تتضمن مقدمة الكتاب سيرة ذاتية للمؤلف .فتحدث عن المناصب التي تولى بها ثم تناول رحلته إلى دولة السودان.[٢٤] وكتاب تخليص الإبريز لرفاعة الطهطاوي (ت١٨٧٣) يعتبره الباحثون من المؤلفات الرئيسية في مجال السيرة الذاتية، والواقع أن هذا الكتاب كان مخفياً عن أنظار الناس لبعض الوقت. وهدف رفاعة من هذا الكتاب، تحدث عن تجربته في السفر إلى فرنسا، وهذا قد يكون مفيدًا للطلاب الذين يخططون للذهاب إلى فرنسا أو إنجلترا.[٢٥] وكتاب "الأيام" لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين (ت: ١٤٧٣ م) يعتبر الأب المؤسس لهذا الفن في الأدب الحديث عندما أُصدر الجزء الأول من كتابه الأيام عام ١٤٢١ هـ، تلاه الجزء الثاني الذي نُشر عام ١٤٣٤ هـ، ونشر الجزء الثالث حوالي عام ١٤٧٢ هـ، وهي من أشهر السير الذاتية في الأدب العربي المعاصر.

ربما يكون النجاح الذي حققه كتاب الأيام هو ما دفع العديد من الأدباء إلى توثيق أحداث حياتهم ومشاركة تجاربهم مع الأجيال القادمة، وقد أكون محقًا في القول إن كتابة

السيرة الذاتية تأتي من باب الشكر لله، وتدوين تجارب مهمة عاشها الكاتب، بالإضافة إلى عرض آرائه ورؤيته للحياة التي عاشها في مجتمعه. نظرًا لشيوع هذا الفن وانتشاره بين الجميع، ومدى التأثير الذي يخلفه في نفوس القراء، فقد جذب واستقطب هذا الفن من غير الكتاب العديد من الوزراء والولاة والعسكريين والسياسيين والأطباء، والتجار، والفنانين، والمعلمين[٢٦] .

وكذلك الكتاب "حياتي" للأديب المصري المعروف أحمد أمين (ت ١٩٥٤ م) الذي كتب سيرته الذاتية. يظهر فيه العلاقات الدولية بين الأفراد والمواقع ويميل إلى التعبير عن الواقع، ويتميز بأسلوبه الجميل والإخباري الذي يربط بين السيرة الذاتية والتاريخ، مبتعدًا عن الجانب الفني [٢٧] أما عباس محمود العقاد (ت: ١٩٦٤م)، فنجد أنه يتبنى أسلوبًا مميزًا ومتفردًا في كتابة سيرته الذاتية، يختلف تمامًا عن الطريقة والأسلوب اللذين اتبعهما كل من طه حسين وأحمد أمين. ومن خلال سيرته، نلاحظ أنه اختار أسلوبًا تحليليًا تفسيريًا، واعتاده في مقالاته، فصار السمة الغالبة على مجمل كتاباته.[٢٨]

وقد واصل فن السيرة الذاتية تطوّره في الأدب العربي الحديث، فبرزت له نماذج ناضجة في كتابات عدد من الأدباء والمفكرين العرب، الذين جعلوا من تجاربهم الشخصية مادّة للتعبير الفني والتأمل الذاتي. من أبرز هؤلاء الأديب المصري إبراهيم عبد القادر المازني، الذي قدّم سيرة ذاتية أدبية بعنوان إبراهيم الكاتب، نُشرت عام ١٩٣١م، وقد عبّر فيها عن ذاته من خلال قالب روائي يعكس صراعاته الفكرية والنفسية. كذلك الدكتور شوقي ضيف، الذي ألّف كتابًا بعنوان الترجمة الشخصية سنة ١٩٩١م، قدّم فيه تجربته الذاتية بلغة متزنة وتأملية . [٢٩]

ويأتي أيضًا الأديب الفلسطيني المعروف جبرا إبراهيم جبرا، الذي كتب سيرته في عمله الشهير البئر الأولى، ونشره عام ١٩٨٧م، مستعرضًا فيه مراحل طفولته وتكوينه الثقافي وسط بيئة متشابكة الهوية. أما إحسان عباس (ت: ٢٠٠٣م)، فقد ألّف كتابًا نقديًا موسومًا بـ فن

السيرة الذاتية، جمع فيه بين التأصيل النظري والتطبيق الأدبي، مسلطًا الضوء على خصائص هذا الفن وتحولاته.(٣٠)

ومن الأعمال التي لاقت صدى واسعًا كذلك، كتاب الخبز الحافي للكاتب المغربي محمد شكري (ت: ٢٠٠٣م)، وهي سيرة ذاتية جريئة ومؤلمة، كُتبت بأسلوب صادم وصريح، وفضحت واقع الفقر والتهميش. كما نذكر الكاتب الأردني محمد القيسي (ت: ٢٠٠٣م) في عمله ثلاثية حمدة، الذي تناول فيه تجاربه الحياتية في شكل سردي قائم على المزج بين الذاتي والجمعي.

وتُعدّ هذه الأعمال وغيرها من أبرز النماذج التي رسّخت حضور فن السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، سواء من حيث الشكل الفني أو من حيث المضامين النفسية والاجتماعية، مما منح هذا الفن أفقًا جديدًا وعمقًا إنسانيًا أكثر اتساعًا.

كتب الاعترافات: يشكّل أدب "الاعترافات" قسمًا مميزًا من أقسام الأدب السيري، وقد شُيع استخدام هذا المصطلح وانتشاره في الأدب العربي الحديث، لا سيما منذ القرن التاسع عشر الميلادي، في أعقاب الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٧م،(٣١) حيث تزايد التفاعل الثقافي مع الغرب وازداد إتقان الأدباء العرب للغات الأجنبية.(٣٢) وعلى إثر ذلك، اتّجه العديد من الأدباء المحدثين إلى كتابة سيرهم بأسلوب يتقاطع مع ما كتبه الأسلاف من تراجم ذاتية، لكن في قالب جديد يحمل في طيّاته سمات روحية ووجدانية، تميل إلى المكاشفة الداخلية والتعبير الصادق.

وتُعد الاعترافات، بحسب توصيف النقاد، ضربًا من الرياضة الروحية، تشبه تجربة الإلهام عند الفنان، إذ يعبّر فيها الكاتب عن خلجات نفسه في لحظات صفاء أو انكشاف ذاتي. ويؤكّد الدكتور يحيى عبد الدايم في كتابه الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث أن الاعترافات – خصوصًا في سياقها الصوفي – تُنقل في لحظات مفاجئة، ينعزل فيها الإنسان عن وعيه الظاهري ويندفع نحو عوالم روحانية، ثم يعود إلى وعيه ليترجم تلك التجربة إلى لغة حسيّة

ومشاعر صادقة. ويتجلى هذا النوع من الكتابة في عدد من نصوص التراث الصوفي التي تمزج بين السيرة والاعتراف، كما في النصائح الدينية والنفحات المقدسية للحارث بن أسد المحاسبي، والمنقذ من الضلال للإمام الغزالي، والطواسين للحلاج، وكلها تتضمن تأملات ذاتية في ضوء الإحساس بالخطيئة أو الرغبة في التوبة.

وفي العصر الحديث، تأثر الأدب العربي بهذا النوع الأدبي الغربي تأثرًا بيّنًا، فكتب الأديب المصري عبد الرحمن شكري (ت: ١٤١٩م) الاعترافات، مستلهمًا من اعترافات جان جاك روسو، وقد نشره عام ١٩٣١م في الإسكندرية. كما ساهم الكاتب اللبناني ربيع جابر في تطوير هذا الجنس الأدبي من خلال كتابه كتاب الاعترافات، الذي ضمّ تجارب إبداعية لأدباء وشعراء عرب دون سن التاسعة والثلاثين، مقدّمًا بذلك رؤية شبابية معاصرة للاعترافات الذاتية.

وقد ظهرت لاحقًا أعمال عديدة حملت عنوان "الاعترافات" أو دارت في فلكها، منها: اعترافات مصطفى محمود، أخطر الاعترافات لكريم عيسى، الاعتراف الأخير لبدوي أبو زيد، واعترافات سينا شيمبور، والاعتراف الأخير لدرويش الأسبوعي، والاعتراف الأخير لمالك بن الريب، والاعترافات لأسماء مجدي، وقصة نفس لعبد الرحمن شكري، واعتراف أبو علي عبد الحق، واعتراف أصغر من مشاعري لزينب البحراني، واعترافات أبي نواس، وصرخة الأزمنة: سفر الاعتراف لإبراهيم أبو عود، واعترافاتي لمحمد الصالح حرز الله، وأعمال أخرى مثل الاعتراف لعلي أبو الريش، ورواية محمد العلوي.

وتُظهر هذه النماذج أن مصطلح "الاعترافات" أصبح إطارًا مرنًا للتعبير الذاتي في الأدب العربي الحديث، يجمع بين البوح الشخصي والتأمل الروحي والتمرد الفني، ويشكّل امتدادًا طبيعيًّا لفن السيرة الذاتية بمضامين وأساليب مختلفة.

كتب اليوميات: اليوميات تشبه السيرة من ناحية معينة وتختلف عنها في نواحٍ أخرى، حيث أن اليوميات تماثل السيرة في تناول ما يتعلق بحياة شخص ما، لكن اليوميات تفتقر إلى

الالتزام بنمط فني محدد .بدأ الاهتمام بتدوين اليوميات في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، وكان كتّاب اليوميات يفضلون عدم نشرها.(٣٣) وأفضل مثال على ذلك نجد في كتاب "الأيام" لطه حسين، الذي يُعتبر سيرة ذاتية رائعة جداً في الأدب العربي

الروايات: هناك مظهر أخر من مظاهر السيرة الذاتية وهي الروايات التي تحكي قصص أصحابها، ومن أشهرها في الأدب العربي الحديث "رواية عصفور من الشرق" لأديب توفيق الحكيم التي تقص لنا سيرته الذاتية، ورواية "الحي اللاتيني "للأستاذ سهيل إدريس التي تسرد فيه سيرة حياته، ورواية "سبعون "للكاتب والناقد المهجري ميخائيل نعيمة تسرد سيرته الذاتية في ثلاثة أقسام، حيث يتناول كل قسم منها فترة من فترات حياته .كما يُصدر الكاتب المعروف والأديب البارز إحسان عبد القدوس مذكراته بعنوان: غربة الراعي، إضافة إلى ذلك، هناك بعض الكتّاب مثل نجيب محفوظ الذي قدّم تجربته في سياق قصصي مليء بالعمق والذاتية، حيث تعد من أبرز النماذج التي تسلط الضوء على سيرتهم ضمن الرواية كشخصية أو ذاتية.

المذكرات تتناول المذكرات ما يحدث حول كاتبها، وتركز بشدة على الأحداث المحيطة به وخارج نطاقه أكثر من اهتمامها بالكاتب ذاته .ونستفيد من المذكرات بشكل كبير عن المجتمع الذي تحوم حوله .إنها كتيبات يتحدث فيها الكاتب عن الأحداث التي تحيط به ويرصدها ويوثقها، فهو لا يذكر عن نفسه إلا القليل بالضرورة. ومن أهم المذكرات التي لها علاقة بالسير الذاتية، هي مذكرات محمد عزة دروزة بعنوان:" وتسجيلات مئة عام فلسطينية"(٣٤) وغيرها من المذكرات المهمة في الأدب العربي الحديث.

كتب التاريخ: السيرة الذاتية تسير مع التاريخ جنبًا إلى جنب، تنمو وتكبر في كنف التاريخ، تتناول الحديث عن شخص بدءاً من ولادته وتطوره وتعليمه وتربيته حتى لقائه بربه عز وجل، كما أشرنا سابقا إلى تعريف لوجون نجد أن السيرة الذاتية لم تتجاهل التاريخ، بل تسير جنباً إلى جنب مع الشخصية المعنية، ويقوم المؤلف بالتدوين كلما توفرت معلومات عن

صاحب السيرة أو غيره. إحسان عباس يشير إلى هذه العلاقة القوية بين السيرة الذاتية والتاريخ بشكل واضح، ويؤكد أن أعماله مرتبطة، حيث يقول: كلما كانت السيرة تسلط الضوء على الفرد في إطار. فإن السيرة تجسد هدفًا يتسم بالأحداث العامة، سواء كانت منعكسة أو متأثرة تاريخيًا.

كتب عن الحيات الشخصية: ومن أهم مظاهر السير الذاتية في الأب العربي الحديث كتب عنوانها: حياتي أو قصة حياتي وغيرها. وهي التي تعبر عن شخصية المؤلف أو شخصية ما. ومن أهم نماذجها كتاب " حياتي" للأديب المصري المعروف أحمد أمين الذي كتب فيه سيرته الذاتية، وتبعه الأستاذ لطفي السيد الذي ألف سيرة حياتي عام ١٤١٢ هـ، كما كتب الأستاذ عباس محمود العقاد عن تجارب متنوعة في حياته في مقالات متعددة، وتم نشرها في مجلتي الهلال والفصول، وقد أُعيد تجميع هذه المقالات في كتاب بعنوان: "أنا"، الذي صدر عام ١٤١٩ هـ بعد أشهر من وفاته.

ألف الأستاذ توفيق الحكيم سجن العمر في عام ١٤١٧ هـ، بينما روّت الشاعرة العراقية نازك الملائكة حياتها الشخصية التي صدرت بعنوان صفحات من حياة نازك الملائكة في عام ١٤٤٩ هـ، وهناك كتب بعنوان "قصة نفس "كتبها الدكتور زكي نجيب محمود، حيث تناول فيها حياته ونشرها في ثلاث مؤلفات .وكتاب قصة حياتي لأنور السادات يتحدث فيه عن تجارب حياته وبداية مسيرة شاب كان مقدراً له أن يؤدي دوراً مهماً في الحياة السياسية للشعب المصري بشكل خاص ولشعوب الشرق الأوسط بشكل عام .وتمثل في نفس الوقت سيرة حياة مصر منذ عام ١٩١٨ وكتاب حياتي مع الله من تأليف الكاتبة وروائية عالية الشبيب، التي تقدم مجموعة متنوعة من الكتب المثيرة والمفيدة. التي توجه عشاق الحياة إلى أنه إن لم تحقق اليوم أمنياتك وتطلعاتك، فغدا هو يوم جديد إن شاء الله.

الرحلات والاسفار: وأيضا من مظاهر السير الذاتية في الأب العربي الحديث الأسفار والرحلات التي تعبر عن جزء خاص من سيرة أصحاب الأسفار والرحلات لها أهمية كبيرة في الأدب العربي القيم والحديث. ومن أهم الأمثلة فيها" رحلة جبلية رحلة صعبة" التي كتبت فيها الشاعرة الفلسطينية الشهيرة فدوى طوقان سيرتها ونشرت عام ١٤٩١ م.

مظاهر السيرة في الأدب الغربي الحديث

تكلمنا سابقا عن ملامح السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم والحديث، والآن نتطرق إلى مظاهر السيرة الذاتية في الأدب الغربي الحديث. إن الأديب الفرنسي المعروف "جان جاك روسو" هو أول من وضع أُسس فن السيرة الذاتية في الغرب الحديث، معلنًا ريادته لهذا الفن في عام ١٧١٤ م عند صدور سيرته الذاتية التي تحمل عنوان :اعترافات جان جاك روسو. لاحقته مجموعة من الأدباء والشعراء في أوروبا، فركزوا على نشر سيرهم الذاتية وشملوا فيها الأحداث والتجارب التي عاشوها في حياتهم .استخدمت كلمة "السيرة الذاتية "لأول مرة من قبل "ويليام تايلور" عام ١٧٩٧ في المجلة الإنجليزية المراجعة الشهرية بشكل غير واضح .لكنَّ استخدامها الحالي كان بواسطة روبرت ساودي في عام ١٨٠٩ خلال أوائل القرن التاسع عشر، تستعرض السيرة الذاتية حياة مؤلفها منذ بداية تشكّلها، وتعتمد بالكامل على ذاكرة الكاتب وكتبه التذكارية، لذا فإن قالب المذكرات مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسيرة الذاتية أيضًا. قد تعرضنا لنماذج من السير الذاتية قبل ظهور الأدب الغربي الحديث، والتي كانت تدور في إطار محدد لتغطي الأحداث والوقائع التي عاشها صاحب السيرة، حيث كان الأمر مقتصراً على تغطية بعض من أهم الأحداث والوقائع .تكونت السيرة الذاتية بأشكال متنوعة وبرزت في الأدب الغربي الحديث بمظاهرها المتعددة، من أهمها فيما يلي:

كتب السيرة الذاتية: هناك كتب متعددة في الأدب الغربي الحديث تشمل السير الذاتيه لأصحابها، ومن أهمها: كتاب "السّيرة الذّاتية" لجورج ماي الذي أسهم في هذا المجال وألحقه بالنظرية النقدية الحديثة بقوله: "فمن المشاكل التي تطرحها السيرة الذاتية في النظرية النقدية الحديثة"(٣٥) نجد أيضاً الميثاق بين السيرة والتاريخ الأدبي عند (فيليب لوجون) في كتابه "السيرة الذاتية" الذي نقله إلى العربية عمر حلّى، والصادر عن المركز الثقافي العربي، بيروت، "الدار البيضاء ". فالسيرة الذاتية عنده: هي سردٌ نثري استذكاري ونوع أدبي يقوم به شخص حقيقي حول وجوده الخاص، مع التركيز على حياته الفردية وتاريخ شخصيته بشكل خاص في هذا النوع من الأدب، يقوم الكاتب بعملية الاسترجاع بشكل كثيف، حيث ينطلق من الحاضر الذي يشهد عملية السرد عبر الكتابة، متوجها إلى الماضي الذي عاش فيه مجموعة من التجارب، التي تركت في نفسه آثارا عميقة.(٣٦) هذه هي بعض أشهر النماذج التي نعرضها في ضوء كتب السيرة الذاتية، ففهي تُعدمن أهم الكتب التي تشتمل على السير الذاتية في الأدب الغربي الحديث.

كتب الاعترافات: يوجد قسم آخر من أقسام الترجمة الذاتية وهو الاعترافات، التي انتشرت في القرن الثامن عشر تقريباً في أوروبا .إنها رياضة روحية تشبه تجربة الإلهام لدى الفنان، حيث كانت الاعترافات الدينية في العصور الوسطى تركز بشكل كبير على تصور تجربة الكشف الصوفي. وأهم مثال على ذلك هو اعترافات القديس أوغسطين التي يصفها عبد العزيز شرف بأنها "تستحق أن تُعتبر أقدم سيرة ذاتية محفوظة"(٣٧) ومن النماذج المهمة التي أصبحت تحتذى في مجال السيرة الذاتية هي: اعترافات شبابي لجراف ليوتولستوي، وسنة في حجرة الاعترافات لفريد ريك لوسيس، واعترافات جولدا مائير، واعترافات جان جوك رسو، وغيرها التي تعتبر في قمة الاعترافات الدينية. يقول وليم سبينج مان عنها: "أنها شكلت الإرهاصات الأولى لنشأة أشكال السيرة الذاتية، وهي الأشكال التاريخية، والفلسفية، والشعرية في الأدب الغربي الحديث".(٣٨)

كتب اليوميات: ومن مظاهر السيرة الذاتية في الأدب الغربي "يوميات فرد ما" فهي كذلك تشبه مع السيرة من وجه وتختلف عنها في وجه آخر، إذ أنها تتعلق بذكر حياة شخص ما. وقد عدّها بعض العلماء والكُتّاب بأنها جزء من السيرة الذاتية وليست تراجم ذاتية كاملة، رغم ذلك بأن لها قيمة فنية في الأدب السيري، فهي تُعد من البذور الأولى للترجمة الذاتية في الأدب الحديث. وقد بدأ هذا النوع من الأدب السيري في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، إذ كان أصحاب هذا الفن يرغبون في عدم نشره، فأول من شرع فيه وسجل يومياته في الأدب الغربي أو الإنجليزي هو "وليم دوجديل"[٣٩] الذي كتب في يومياته خمسة وأربعين سنة من حياته، ولكنها لم تنشر إلا بعد وفاته.

الروايات: من السمات البارزة للأدب السيري الحديث بروز الرواية بوصفها أحد أشكال التعبير الذاتي، وهي جنس أدبي نشأ في الغرب، يقوم على السرد الفني للوقائع والأفكار الاجتماعية ضمن بناء زمني متسلسل يشد القارئ ويثير اهتمامه. وفي كثير من الروايات، تتجلى ملامح شخصية الكاتب من خلال الأحداث أو الشخصيات، رغم محاولاته التخفي خلف قناع السرد الروائي. إلا أن كل عمل قصصي يتقاطع مع تجربة الكاتب لا يُعد بالضرورة سيرة ذاتية، إذ تختلف النية والأسلوب والغرض. وقد أشار الناقد جورج ماي إلى أن الفارق الحقيقي بين قراءتنا للسيرة الذاتية وقراءتنا للرواية لا يكمن في كون الأولى واقعية والثانية خيالية، بل في طبيعة التلقي؛ فالسيرة تقدم نفسها بوصفها واقعًا معيشًا، بينما تقدم الرواية ذاتها في هيئة خيال فني. ومن النماذج التي جسدت التجربة الذاتية في إطار روائي ما كتبه جوس إدموند في روايته الوالد والولد، حيث عرض فيها تفاصيل حياته الشخصية ضمن بنية قصصية متكاملة لم تُغفل الجماليات الفنية التي تمنح القارئ لذة القراءة الأدبية[٤٠] .

مضافا إلى ذلك نجد هناك مظاهر الأدب السيري في الأدب الغربي الحديث من أهمها: المذكرات، وكتب التاريخ، وكتب عن الحيات الشخصية، والرحلات، والاسفار وغيرها.

خلاصة البحث ونتائجه

ملخصا لكل ما سبق في الأوراق السابقة يمكن لنا أن نستنتج فيما يلي:

١. من الثوابت الأدبية أن ولادة أي فن لا تكون بمعزل عن مقدمات وعوامل مهيئة، تسهم في نشأته وتدفعه إلى النضج والتطور، والسيرة الذاتية كفن أدبي لم تكن استثناءً؛ إذ انبثقت عن عدد من العوامل التمهيدية، كان من أبرزها ظاهرة التفاعل الثقافي بين الآداب، التي أفرزت حراكًا نقديًا وأدبيًا ساعد على نشوء هذا الفن وتقدّمه.

٢. توصل البحث إلى أن إرهاصات السيرة الذاتية قد ظهرت في الأدب العربي قبل أن تتبلور في الغرب، حيث عبّرت الكتابات العربية المبكرة عن وعي ذاتي وفكري يُعدّ نواة لهذا الفن. غير أن الشكل الحديث للسيرة الذاتية بما يحمله من عمق نفسي وبناء فني متكامل قد تطور أولًا في الغرب، ما جعل الأدب العربي الحديث يتأثر به ويعيد إنتاجه وفق خصائصه الجديدة.

٣. تناولت الدراسة نماذج من السير الذاتية القديمة في التراث العربي، والتي كانت تميل إلى تسجيل الوقائع والأحداث الكبرى في حياة أصحابها، دون الدخول في البناء الفني الذي تتسم به السيرة الذاتية الحديثة. وهذا يُظهر أن الملامح الفنية المتكاملة لهذا الفن قد انتقلت إلى الأدب العربي من خلال الاحتكاك بالتجارب الغربية.

٤. لا يُنتظر من التراث الأدبي العربي القديم أن يقدم لنا سيرًا ذاتية بالمعنى الحديث؛ إذ أن لكل عصر لغته وأساليبه وأجناسه الأدبية الخاصة، ومع تطور الأنواع الأدبية تتبدل سماتها ومقاصدها. ومن ثمّ، فإن ما نجده في التراث من كتابات ذاتية يُعدّ أقرب إلى التمهيد والتأسيس للسيرة الذاتية، وليس صورة ناضجة لها كما نعرفها اليوم. والواقع أن أي أدب عالمي قديم يندر فيه أن نجد نموذجًا متكاملًا للسيرة الذاتية الحديثة، بسبب اختلاف الشروط الثقافية والنفسية والاجتماعية في كل زمن.

٥. يتضح من نتائج البحث أن التراث العربي سبق الغرب في تسجيل المذكرات والترجمات الذاتية، فبينما كانت أوروبا في بداياتها تحاول بلورة هذا الفن في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كانت الثقافة العربية الإسلامية قد أنتجت أعمالًا ناضجة وغنية من هذا النوع، كما في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، الذي يُعد شاهدًا على التقدّم النوعي في هذا الباب.

٦. خلص البحث إلى أن ثمة تقاطعًا واضحًا في مظاهر السيرة الذاتية بين الأدب العربي ونظيره الغربي، وهذا التشابه لم يكن نتيجة صدفة، بل هو ثمرة لتأثير متبادل بين الثقافتين. ويتجلى هذا التفاعل في محاكاة بعض الأدباء العرب لنماذج غربية رائدة؛ فمثلًا كتب عبد الرحمن شكري الاعترافات مستلهمًا فيه اعترافات جان جاك روسو، التي نُشرت في الإسكندرية عام ١٤١١م، مما يدل على وعي نقدي وتفاعل ثقافي مثمر بين الضفتين.

الحواشي والمراجع

(١) المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، إشراف علي حسن عطية ومحمد شوقي أمين، ط/٢، ١٩٧٢م ج/١ .

(٢) قاموس المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي ووهبة وكامل المينذس، مكتبة لبنان، بيروت، ط/٢، ١٩٨٤ ص/٢٠٥.

(٣) المعجم الأدبي، عبد النور، جبور: دار العلم للملايين، لبنان، الطبعة الثانية .١٩٨٤، ص/١٤٣.

(٤) علم التراجم قيمته وفائدته، الدكتور إبراهيم بن حماد الريس أستاذ الحديث المساعد بقسم الثقافة الإسلامية في كلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض ١٤٢٢هـ، ص/ ٣٢-٤٨

(٥) كتابة التاجم والستَ إضاءات موصلية، عمر عبد الغفور أتزد القطان، العدد/٥، صفر ٥١٣٠ هـ، كانون الثاني ٤٠٥١ م، ص/٤.

(٦) كتاب الضعفاء، أحمد بن عثد الله بن احمد، تحقيق: فاروق حمادة، ط/١، دار الثقافة الدار البيضاء ١٩٨٠، ص/٤-٥

(٧) عبد القادر بن أبي الوفاء، كتاب الجواهر المضية في طبقات الحنفية، كتب خانه ص/ ١- ٦

(٨) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ط/٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥، ص/١-١٠

(٩) نفس المصدر

(١٠)تهذيب سير أعلام النبلاء، محمد بن احمد أبي عبد الله، ط/٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣١٤م، ص/ ١ ٧

(١١) المقدمة، لابن خلدون، ط/١، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م

(١٢) المرجع السابق

(١٣) نفس المصدر

(١٤) علم التراجم وفرادته وفوائده، ص/٣٢-٤٨

(١٥) نفس المصدر

(١٦) نفس المصدر

(١٧) السيرة الذاتية النسائية في الأدب الحديث، أمل التميمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط/١، ٢٠٠٥، ص/ ٢٣.

(١٨) فن السيرة الذاتية وغيرية في إطار النقد المعاصر الحديدى، عبد اللطيف، دار السعادة للطباعة، القاهرة، ط/١، ١٩٩٦، ص/٦٧.

(١٩) التّرجمة الشّخصيّة، شوقي ضيف، دار المعارف في مصر، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م، ص/٥، وانظر السيرة فن وتاريخ، ماهر حسن فهمي، مكتبة النهضة، الطبعة الأولى، ١٤٧٥م، القاهرة، ص/٢٢١.

(٢٠) شرح المعلقات العشر المذهبات، الخطيب التبريزي، ص/٢٥.

(٢١) فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي، د. عبد المجيد البغدادي، مجلة القسم العربي، العدد الثالث والعشرون ٢٠١٦ م، ص/ ١٩٥-١٩٦

(٢٢) التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، القاهرة، دار المعارف، ط/١، ص/ ٢٣، بتصرف يسير، الدراسات الإسلامية، ج/٥٦، ع/١

(٢٣) معجم المصطلحات الأدبية، ص/٢٥٢، وانظر السيرة الذاتية في الأدب العربي، ص/٣١١

(٢٤) تعتبر أول سيرة ظهرت في العصر الحديث، فيها تنقلات الشدياق وبعض أحواله، راجع ذلك في كتاب إحسان عباس في فن السيرة، ص/١٣

(٢٥) السيرة الذاتية في الأدب العربي، تماني عبد الفتاح شاكر، ص/٧٠ -٧١.

(٢٦) طه حسين روائيا، خالد الكركي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط/١، ١٩٩٢، ص/ ١١٣.

(٢٧) فن السيرة، إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط/ ١٩٩٦ ص/١٣٢.

(٢٨) السيرة الذاتية في الأدب العربي، ص/٨٠

(٢٩) الترجمة الشخصية، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.

(٣٠) فن السيرة، ص، ١٣٢.

(٣١) السيرة الذاتية في الأدب العربي، ص/٦٧

(٣٢) الترجمة الشخصية، ص/١٠٥

(٣٣) فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي، ص/٢٠١

(٣٤) نفس المرجع

(٣٥)كتاب السيرة الذاتية لجورج مائ ترجمة عربيّة لمحمّد القاضي وعبد الله صولة، صدر عن بيت الحكمة بقرطاج، تونس، ص/١٢

(٣٦)السّيرة الذّاتيّة والميثاق والتاريخ، لوجون فيليب، ترجمة عمر حليّ، المركز الثقافي العربيّ، بيروت،١٩٩٤، ص/٢٤

(٣٧) أدب السيرة الذاتية، مصر عبد العزيز شرف، الشركة المصرية، ١٤٤٢، ص/٣٤، وانظر فن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني بين ١٠٠١-٢٩٩١ م، ندى محمود مصطفى الشيب، نوقشت الرسالة بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح، الوطنية نابلس، فلسطين، ص/١١

(٣٨) فن السير الذاتية في الأدب العربي تاريخه وملامحه، ياسين أكبر جوهر، الدراسات الإسلامية/٥٦، ع/١، ص/٦٧

(٣٩)الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، يحيى عبد الدايم، ص/١٥

(٤٠)السيرة الذاتية، ماي، جورج، ص/١٨٤- ١٨٥

References in Roman Script

1. Ibrāhīm Anīs et al., *al-Muʿjam al-Wasīṭ*, supervised by ʿAlī Ḥasan ʿAṭiyyah and Muḥammad Shawqī Amīn, 2nd ed., 1972, vol. 1.
2. Majdī Waybah & Kāmel al-Mīndis, *Qāmūs al-Muṣṭalaḥāt al-ʿArabiyyah fī al-Lughah wa-al-Adab*, Maktabat Lubnān, Beirut, 2nd ed., 1984, p. 205.
3. Jabbūr ʿAbd al-Nūr, *al-Muʿjam al-Adabī*, Dār al-ʿIlm lil-Malāyīn, Lebanon, 2nd ed., 1984, p. 143.
4. Ibrāhīm ibn Ḥammād al-Rayyis, *ʿIlm al-Tarājim Qīmatuhu wa-Fāʾidatuhu*, College of Education, King Saud University, Riyadh, 1422 H, pp. 32–48.
5. ʿUmar ʿAbd al-Ghafūr Aztad al-Qaṭṭān, "Kitābat al-Tarājim wa-al-Sitt Iḍāʾāt Mawṣiliyyah," issue 5, Ṣafar 5130 H / January 4051 CE, p. 4.
6. Aḥmad ibn ʿAbd Allāh ibn Aḥmad, *Kitāb al-Ḍuʿafāʾ*, ed. Fārūq Ḥammādah, 1st ed., Dār al-Thaqāfah, Casablanca, 1980, pp. 4–5.

7. ʿAbd al-Qādir ibn Abī al-Wafā, *Kitāb al-Jawāhir al-Muḍiyyah fī Ṭabaqāt al-Ḥanafiyyah*, Kutub Khānah, pp. 1–6.
8. Ibn al-Athīr, *al-Kāmil fī al-Tārīkh*, 4th ed., Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, Beirut, 1995, pp. 1–10.
9. Ibid.
10. Muḥammad ibn Aḥmad Abī ʿAbd Allāh, *Tahdhīb Siyar Aʿlām al-Nubalāʾ*, 9th ed., Muʾassasat al-Risālah, Beirut, 1314 CE, p. 71.
11. Ibn Khaldūn, *al-Muqaddimah*, 1st ed., Dār al-Qalam, Beirut, 1984.
12. Ibid.
13. Ibid.
14. *ʿIlm al-Tarājim wa-Farādatuhu wa-Fawāʾiduhu*, pp. 32–48.
15. Ibid.
16. Ibid.
17. Amal al-Tamīmī, *al-Sīrah al-Dhātiyyah al-Nisāʾiyyah fī al-Adab al-Ḥadīth*, al-Markaz al-Thaqāfī al-ʿArabī, Casablanca, 1st ed., 2005, p. 23.
18. ʿAbd al-Laṭīf al-Ḥadīdī, *Fan al-Sīrah al-Dhātiyyah wa-al-Ghayriyyah fī Iṭār al-Naqd al-Muʿāṣir al-Ḥadīth*, Dār al-Saʿādah li-al-Ṭibāʿah, Cairo, 1st ed., 1996, p. 67.
19. Shawqī Ḍayf, *al-Tarjamah al-Shakhṣiyyah*, Dār al-Maʿārif, Cairo, 2nd ed., 1956, p. 5; cf. Māhir Ḥasan Fahmī, *al-Sīrah Fan wa-Tārīkh*, Maktabat al-Nahḍah, Cairo, 1st ed., 1475, p. 221.
20. al-Khaṭīb al-Tabrīzī, *Sharḥ al-Muʿallaqāt al-ʿAshr al-Mudhahhabāt*, p. 25.
21. ʿAbd al-Majīd al-Baghdādī, *Fan al-Sīrah al-Dhātiyyah wa-Anwāʿuhā fī al-Adab al-ʿArabī*, *Majallat al-Qism al-ʿArabī*, no. 23, 2016, pp. 195–196.
22. Muḥammad ʿAbd al-Ghanī Ḥasan, *al-Tarājim wa-al-Siyar*, Dār al-Maʿārif, Cairo, 1st ed., p. 23, adapted; *al-Dirāsāt al-Islāmiyyah*, vol. 56, no. 1.
23. *Muʿjam al-Muṣṭalaḥāt al-Adabiyyah*, p. 252; cf. *al-Sīrah al-Dhātiyyah fī al-Adab al-ʿArabī*, p. 311.
24. The first modern autobiography is considered that of al-Shidyāq; see Iḥsān ʿAbbās, *Fan al-Sīrah*, p. 13.
25. Tihānī ʿAbd al-Fattāḥ Shākir, *al-Sīrah al-Dhātiyyah fī al-Adab al-ʿArabī*, pp. 70–71.
26. Khālid al-Karkī, *Ṭāhā Ḥusayn Riwāʾiyyan*, Dār al-Jīl, Beirut, 1st ed., 1992, p. 113.
27. Iḥsān ʿAbbās, *Fan al-Sīrah*, Dār Ṣādir, Beirut, 1996, p. 132.

28. *al-Sīrah al-Dhātiyyah fī al-Adab al-ʿArabī,* p. 80.
29. Shawqī Ḍayf, *al-Tarjamah al-Shakhṣiyyah*, Dār al-Maʿārif, Cairo, 1987.
30. *Fan al-Sīrah,* p. 132.
31. *al-Sīrah al-Dhātiyyah fī al-Adab al-ʿArabī,* p. 67.
32. *al-Tarjamah al-Shakhṣiyyah,* p. 105.
33. *Fan al-Sīrah al-Dhātiyyah wa-Anwāʿuhā fī al-Adab al-ʿArabī,* p. 201.
34. Ibid.
35. Georges May, *Kitāb al-Sīrah al-Dhātiyyah*, trans. Muḥammad al-Qāḍī & ʿAbd Allāh Ṣūlah, Bayt al-Ḥikmah, Carthage, Tunisia, p. 12.
36. Philippe Lejeune, *al-Sīrah al-Dhātiyyah wa-al-Mīthāq wa-al-Tārīkh*, trans. ʿUmar Ḥallī, al-Markaz al-Thaqāfī al-ʿArabī, Beirut, 1994, p. 24.
37. Miṣr ʿAbd al-ʿAzīz Sharaf, *Adab al-Sīrah al-Dhātiyyah,* al-Sharikah al-Miṣriyyah, 1442, p. 34; cf. Nadā Maḥmūd Muṣṭafā al-Shayb, *Fan al-Sīrah al-Dhātiyyah fī al-Adab al-Filasṭīnī bayna 1001–2991 M*, M.A. thesis, Jāmiʿat al-Najāḥ al-Waṭaniyyah, Palestine, p. 11.
38. Yāsīn Akbar Jawhar, *Fan al-Siyar al-Dhātiyyah fī al-Adab al-ʿArabī: Tārīkhuhu wa-Malāmiḥuhu, al-Dirāsāt al-Islāmiyyah,* vol. 56, no. 1, p. 67.
39. Yaḥyā ʿAbd al-Dāʾim, *al-Tarjamah al-Dhātiyyah fī al-Adab al-ʿArabī al-Ḥadīth*, p. 15.
40. Georges May, *La Vie Autobiographique*, pp. 184–185.